يوم الوداع

نهى شبلاق- فلسطين

ينسحب الظلام من الليل ببطء ليرتاح هو أيضاً من مراقبة العاشقين الساهرين. يفرض الضياء وجوده ببطء متناغماً مع أفول الليل، لا يلتقيان ... إن غاب أحدهما حضر الآخر. لا داع للعجلة فلحظات الوداع الأخيرة بين المحبين هي كل ما يملكون. أما بالنسبة لصفاء فإن قضية الليل والنهار وتبادل أدوارهما لن تعد تعنيها بعد اليوم ، فبعد رحيل حبيبها نادر خلال الساعات القادمة لن تكون بحاجة لليل لا يوجد فيه ولا لنهارلا يمتلئ به.

لم تنتظر استيقاظ أختها. لم تجدها بجانبها على السرير بأية حال ، سبقتها بالإستيقاظ فلا ليلٌ تمضي حياتها بالإلتصاق به، ولا أجفان تنتفخ بكاءاً خشية وعودٍ لا تتحقق. ستخرج دون رؤيتها . أخرجت الورقة الصفراء المهترئة من بين ملابسها في الخزانة. قرأتها وكأنها المرة الأولى، أثار استيائها تضخم الأحرف بسبب رطوبة الحبر الأزرق ، رسالة كانت كتبتها سابقاً حى تؤنس وحشة قلبه في ليل البحر المظلم، وعود بالإنتظار خطت في تلك الرسالة ، قبلة وردية مزمومة ذيلت بها آخر الورقة . دستها في فتحة ثوبها العلوية.

أكملت عقد ظفائرها في الطريق إلى الشاطئ، ستلقاه لتودعه، ستنتظره ليرحل، سينطلق في قارب مع ثلاثة من رفاقه.. هجرة غير شرعية هرباً من حياة غير شرعية!

أمام أمواج البحر المتلاطمة يجلس الرجل العجوز مغمض العينين ، تقترب منه صفاء وتتخذ حيزاً من الكرسي مقعداً لها. تجاعيد وجهه.. كم عاش؟ ما القصص المحفورة في مرآة نفسه .. لطالما انجذبت إلى أحاديث المسنين وقصصهم المنسية. يوماً ما ستحكي قصة وداعها لنادر ثم عودته.. الثقة بعودته هي اليقين الذي أنجبت منه أحلامها.

تغفو.. تتوسط الشمس السماء ويمتلئ المكان بالناس.. كرة يقذفها أحد الأطفال فتضل طريقها وتسقط بجانب صفاء ، تستيقظ غاضبة.. تأخرت.. فوتت الوعد. لم يجئ.. جاء ورحل دون وداعها. تنظر نحو الطفل الواقف أمامها ، تمسك بالكرة وتحاول النهوض لتفرغ غضبها عليه، ألماً مفاجئاُ يصيب ركبتيها ويجعلها تلتزم المكان، تلتزم الصمت، تلتزم خيبة الأمل. ترمي الكرة للطفل للتخلص من نظراته المنتظرة.

يقترب منها البائع المتجول ويعطيها قطعتي بوظة " كيفك ياحجة، إلك ولأختك" تطيل النظر إليه، يشير بإصبعه إلى جيب فستانها ويحرك حاجبيه بالتزامن، تضع صفاء يدها في جيبها وتخرج قطعاً نقدية، يتناولها البائع ويذهب .

تمطر عيناها قطرات و تزداد، تنشج فيستيقظ الرجل العجوز " لا حول ولا قوة إلا بالله ".

تفرك عينيها بأصابعها وتعتذر " آسفة عمي ". يطيل النظر في محيط وجهها،

يبتسم ويمسك بإحدى ظفائرها ، تبتعد .. " احترم نفسك " .

تحاول الوقوف تخونها رجليها .. يقف الرجل العجوز ويمد يده لمساعدتها على النهوض. يومئ برأسه موافقاً كتشجيع لها.. تنظر حولها ثم تستجيب وتحاول النهوض، تقف .. يتأبط ذراعها ويلصق جسده بجسدها :" امشِ ياصفاء عالبيت " حاولت مقاومته والإبتعاد عنه، قوته البدنية فاقتها، قررت الإستسلام والمضي بجانبه.

في طريق العودة إلى البيت ، يخبرها بأنه يعرفها. يراها كل يوم منذ ثلاث سنوات تأتي لشاطئ البحر للإنتظار. تغفو ثم تستيقظ مع طلوع النهار وتبدأ بالبكاء فيأخذها إلى المنزل.. يحرص على الإستيقاظ قبلها لينتظرها هناك . لا أحدٌ لها غيره ..

يصلان البيت وبجرأة يرافقها إلى غرفة النوم. ترى وجهها في المرآة وتشهق .. شعر أبيض. وجه ممتلئ بالخطوط، جفنان متدليان، وامتلاء في أكتافها وجذعها.

يقترب منها الرجل العجوز ويجلسها برفق على السرير، ويفعل ما يفعله كل يوم صباحاً في نفس التوقيت. يخبرها قصة من قصص الحب الخاصة بالمسنين قصة حياته، قصة حياتها، قصة صفاء التي تزوجت حبيبها نادر بعد عودته بعشر سنوات. لم يرزقا بأي أولاد فكان كل منهما عائلة الآخر.. فقدت والديها ثم شقيقتها ثم ذاكرتها. ماعدا ... يوم الوداع المنتظر..